الاستاذ: منقور صلاح االدين

جامعة ابن خلدون –تيارت– بالجزائر.

موضوع المداخلة: الدينامية الصوتية في نظام اللغة العربية –آلياتها وغاياتها–

الملخص:

يشكل المستوى الصوتي للغة قطب الرحى الذي دارت حوله جل الدراسات اللسانية قديما وحديثا، وقد أخذ بعدا فنيا أكثر من غيره من مستويات اللغة، فكان ذلك سببا كافيا يحفزنا للبحث في مايحدث من تفاعلات وتجاذبات بين الوحدات الصوتية وفق ما أسميناه بالدينامية الصوتية، هذه الظاهرة حاضرة في لغة العرب وكلامها، قبل أن يبدأ التنظير لها في الدرس الصوتي، بل قبل أن تطرح مسألة اللحن وحتى قبل نزول القرآن الكريم.

لا جرم أن اللغة لدى العربي هيفعل إجرائي وممارسة صوتية قبل أن تكون مادة علمية يدرسها ويمحّصها، فالعرب لم تكن أهل كتابة وقراءة، إنما كانت أهل إنشاد وسماع، وقيمة الكلام ومزيّته إنما تدرك لديها بالسمع.

الهدف من بحثنا هو إبراز الآليات التي يشتغل عليها النظام الصوتي للغة العربية وما يعتريه من تفاعلات وتجاذبات بين وحداته وفونيماته المقطعية وفوق المقطعية.

- فماهي تجليات الدينامية الصوتية وماهي الغاية من تلك التفاعلات والتعديلات التي تحدث أو تطرأ داخل نظام اللغة العربية؟
- ما العلاقة بين المستوى الصوتي والمستويات اللغوية الأخرى وإلى أي مدى يمكننا اعتبار الصوت موجها ومحركا فاعلا في نظام المستويات اللغوية الأخرى(النحوي والدلالي والصرفي).

منهج الدراسة : اعتمدنا المنهج الوصفي لتتبع الظاهرة اللغوية واستجلاء بنية نظامها الصوتي وحركيته الداخلية(ديناميته).

المداخلة : الدينامية الصوتية في نظام اللغة العربية –آلياتها وغاياتها–

الطبيعة الصوتية للغة العربية:

احتاج الإنسان إلى التفكير أولا، ثم إلى وسيلة لتبليغ أفكاره، فكانت اللغة وسيلته في ذلك، يتصرف في حروفها وأصواتها ومقاطعها، ليكوّن كلمات وجملا تكفيه صعوبة التواصل والتفاهم مع بني جنسه، وقد مثّل الصوت النواة الحقيقية لهذه اللغة، إذ من الصوت المفرد ننتقل إلى الكلمة ثم إلى التركيب، فهو أول ما نبدأ به، سواء في الممارسة والكلام أو في التحليل والتعليل أثناء الدراسة اللغوية.

لهذه الأهمية القصوى التي يأخذها الصوت من اللغة يقع مدار بحثنا، فيما أمكن تسميته بالدينامية الصوتية، و من خلال هذه الحقيقة المجلوّة في اللغة كونها ظاهرة صوتية، سعى البحث إلى تبيان أشكال ومنابع هذه الدينامية، مع استقراء دلالاتها وغاياتها،وما تتمظهر به في تجاذبات الصوت مع المستويات الاخرى.

فقد تجلت هذه الدينامية الصوتية في شكل ممارسات لغوية تهتم بالمستوى الصوتي، كحسن الإلقاء وتفادي عيوب النطق والاهتمام بالفصاحة وبديع اللفظ، وبعد نزول القرآن تجسّدت وتوطدت أكثر، بما توّفر لها في النص القرآني من قدسية وهيبة في نفوس المسلمين، ونشير هنا أن ما عنيناه بهذا المصطلح –الدينامية الصوتية– يتعلق بكل ما له صلة بالمستوى الصوتي، وحركيته واستجابته للقوانين الصوتية التي تنبنى عليها الكلمة العربية والتراكيب العربية.ومهما تشعبت بنا تمظهرات الصوت اللغوي في مختلف وضعياته وتلويناته، مفردا كان أو مركبا، في مستواه المقطعي أو فوق المقطعي، فإن ذلك لا يخرجنا عن نطاق البحث في ظاهرة واحدة هي الدينامية الصوتية.

أما مصطلح الصوت فيقول عنه ابن منظور: "الصوت: الجرْس، ويصّوت يصات، صوتا، وأصات وصوّت به كله: نادى، ويقال صوّت بإنسان فدعاه...وصّيتاً أي شديد الصوت عاليه... وكل ضرب من الغناء صوت..."

[1].

ويقول ابن فارس في مادة(ص، و، ت) "الصاد والواو والتاء أصل صحيح وهو الصوت وهو جنس لكل ما وقر في أذن السامع، يقال رجل صيّتٌ اذا كان شديد الصوت، وصائت إذا صاح... والصيّت الذكر الحسن في الناس، يقال ذهب صيته"[2].

وما يعنينا من الأصوات هو الصوت اللغوي الذي يعبر به الإنسان عن أفكاره ومعانيه، كما يعّرفه ابن جنيّ: "اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفَس مستطيلا أملس، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، ويسمى المقطع أينما عرض له حرفا، وتختلف أجراس الحروف حسب اختلاف مقاطعها"[3]. ويعرفه إبراهيم أنيس بقوله: "الصوت ظاهرة طبيعية تدرك أثرها دون أن تدرك كنهها"[4].

أما مجال الدينامية الصوتية في بحثنا، فيتناول كل ما يمكن أن يحدثه تجاور الأصوات اللغوية داخل الصيغ الإفرادية، وأثر هذا التجاور في إحكام تشكّل الصيغ والتراكيب، وتنويع صورها السمعية، وفق ما يستطيعه جهاز النطق ووفق ما تمليه قوانين اللغة التي تضبطها، فإذا كانت مكونات الصوت اللغوي يعبر عنها بالصوامت والصوائت والوحدات الصوتية[5] فإن ما يحدث بين هذه المكونات بفعل تجاورها من تفاعلات وتعديلات في الموقعيات والصفات هو الذي يعبر عنه بالدينامية.

الحضور المكثف للمستوى الصوتي في استعمالات الكلمة العربية :

ولما كان حضور حاسة السمع باديا في لغة العرب وأشعارها، كانت مسوِّغات الظاهرة الصوتية كثيرة بيّنة، تغري باحثها باستجلاء صورها وتشكيلاتها، وقد اهتدينا إلى بعض هذه الصور في كلام العرب ، والتي تبرز معها دينامية الصوت في مستواه المنطوق والمسموع، في شكل ممارسات لغوية صوتية تكشف نظام العربية المبني على المشافهة والسماع لعل أهمها: الاهتمام بإنشاد الأشعار وإلقاءها، والتعلق بالفصاحة، وتوظيف البديع اللفظي.

1- الاهتمام بإنشاد الأشعار وإلقائها:

يبدو أن الماضي كان للسمْع، "فالسمع أبو الملكات "[6]. وقد نشأت اللغات البشرية في صورة صوتية تنطلق من الأفواه، وتتلقفها الأسماع فتفسرها الأذهان، ثم اهتدى الإنسان إلى الكتابة لتدوين أصوات لغته، "ومع تلك الأمية التي كان عليها العرب في جاهليتهم، إلا إن القوم اعتمدوا أيضا على رياضة آذانهم، وتنمية ملكتهم في السماع" [7]، واستطاعوا التمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة في كلامهم، بين حسنه وقبيحه، فاتّسم حديثهم بالانسجام في أصواته وحركاته، واكتسبت بذلك لغتهم هذه الخاصية الموسيقية، هذه الأخيرة لم تكن بادية فقط في أشعارهم على كثرتها، بل كذلك نثرهم وخطبهم يشيع فيهما النغم والإيقاع، بفضل ما اشتملا عليه من سجع وانتظام الفواصل فيما يشبه القوافي، ولم يكن الشاعر ينطق بشعره فحسب، "إنما يحاول أن ينغّمه وينغّم ألفاظه وعباراته، حتى ينقل سامعيه وقارئيه، من لغة اعتيادية إلى لغة موسيقية، ترفعهم إلى عالمه الشعري... وشعرهم كان ينشد في أسواق العرب، أو عند موارد المياه، أو في مجالس القبائل..."[8].

وبذلك اجتمعت الملكة الموسيقية وحسن الإيقاع، مع الممارسة بالإنشاد والإلقاء، وإلا فكيف ينبو شأن الشاعر إذا لم يعلن شعره بالإنشاد، مع علمنا أن الأدب الجاهلي كان أدب سماع ومشافهة، تتداوله المحافل والأسواق، وكان له فيها طقوس إلقاء وسماع، ثم جاء الإسلام فأنشد في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء من بعده فاستسيغ، أما كيفية إنشاده فلا ندريها [9].

إن مختلف أشكال الإنشاد والحداء والغناء والترنم، التي تذكرها كتب الصناعتين وخزانة الأدب والأغاني، هي في الواقع صور لأداء الأشعار، وصور للممارسات اللغوية الشفوية التي يمتزج فيها الكلام بالوزن والإيقاع، فيخرج الشعر بفعل الإنشاد والإلقاء من صمته إلى صوته، وبهذه الشفوية الموزونة تتجلى ديناميةصوتية بين المستويين المقطعي (الخطي) وفوق المقطعي (المسموع).

يرى أدونيس أن الشعر الجاهلي يتميز بخاصية الشفوية، لأنه اعتمد على الذاكرة والحفظ والرواية[10]، في نقله من جيل إلى جيل، فهو قائم على ممارسة صوتية شفوية، ارتبط تواتره بالإنشاد والغناء، والشاعر حينها يعتمد على تجويد شعره، بنفس حرصه على نظمه، لأن نجاحه مرتبط بموهبته وصوته، وحركة جسده في تفاعله مع إلقاء قصيدته، ومن ثم فأمره موكل إلى سامعه، وما تركه في سمعه من أثر الإلقاء والإنشاد. فهو-سامعه- لا يملك فرصة ثانية لسماع القصيدة، وبالتالي كانت طريقة الإلقاء أهم من المقول والمضمون في كثير من الأحيان، لأن الأذن هي التي ستحكم على القصيدة فتقومها سلبا أو إيجابا، وكان من الشعراء من يلقي واقفا أو جالسا، ومنهم من يحرك يديه وجسده ،كما كانت تفعل الخنساء[11].

2- التعلّق بالفصاحة:

إن اهتمام العرب قديما بمباحث الفصاحة، دليل آخر على الافتتان بجمالية اللغة في مستواها الصوتي، لأن الوصف الذي قدّمه أكثرهم*، للفصاحة وشروطها قد بني على معطيات صوتية، تمس جانب اللفظ وجرسه، فجعلوا الكلام الفصيح هو ما خلا من عيوب النطق، وتحدثوا عن فصاحة المفردة، وفصاحة الكلام، وقدموا لذلك وصفا، مرتبطا بتقارب مخارج الحروف وتباعدها، فابن سنان قد أخرج الفصاحة من دائرة البلاغة وميّز بينهما، "وجعل الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ"[12] وكذلك ابن الأثير، هي عنده وصف لحسنِ اللفظ.

ولما كانت الكلمات في أساسها أصواتا، كانت الفصاحة نعتا للأصوات الحسنة المبينة، النقية في مسمعها ووقعها، ويشير رشاد الحمزاوي: "أن معنى الفصاحة قد انحصر في الألفاظ صوتا وأوزانا... ولم يشمل من قرب أو بعد، الفصاحة من حيث النحو والبلاغة والأسلوب"[13].

أما ابن أثير فميزانه في الفصاحة، هو الآخر يعتمد على خاصية السمع، "لأن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات، فالذي يستلذّه السمع فيها، ويميل إليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر منه هو القبيح، ثم استدل أن السمع يستلذّ صوت البلبل وصوت الشحرور، وبينما يكره صوت الغراب، وينفر منه"[14].

وفي ذلك أيضا يقول الرماني:" والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف،كلما كان أعدل كان أشد تلاؤما، وأما التنافر، فالسبب فيه ما ذكره الخليل من أن البعد الشديد يكون بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد، كان بمنزلة المشي المقيد، لأنه رفع اللسان وردّه مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال"[15].

تبقى هذه التعليلات الفيزيولوجية التي قدمها الأولون حول فصاحة الكلام، شاهدا على فضل السمع، في تقصّي حسن الكلام من قبيحه، فهو خاضع لمدى الجهد المبذول في نطق الكلمة، وتصرّف جهاز النطق فيها، وكذلك مدى إدراك جهاز السمع لها، وما يجده من سلاسة ويسر، أو عسر وكلفة.

"فالألفاظ الجزلة تتخيّل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي أمانة ولين أخلاق، ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم، واستلأموا سلاحهم، وتأهبوا للطراد، وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان، عليهن غلائل مصبغات، وقد تحلين بأصناف الحلي"[16].

والواقع أن فصاحة الكلمة سواء أكانت في حسن إدراكها وخفة جرْسها، أوفي الجهد المبذول فيها أثناء نطقها، أو في خلوّ المتكلم من عيوب النطق، وسلامة آلة الكلام عنده، فإنها – الفصاحة– لا تعدو أن تكون صورة جلية عن تلك الحركية والدينامية الصوتية المستترة بين الصوائت والصوامت،والتي تتعالق فيها الأصوات اللغوية في نظام اللغة التي تنتمي إليها.

تجاذبات الصوت مع المستويات اللغوية الأخرى(الدلالي، الصرفي، النحوي):

1- الصوت والدلالة:

للحديث عن علاقة الصوت بالدلالة يكفينا الاستدلال بتلك البحوث التي عقدها ابن جني في كتابيه، سر صناعة الإعراب والخصائص، مبتدئا بعلم الأصوات(الفونيتيك)، وصولا إلى الوظيفة الدلالية للصوت اللغوي، وعلاقة الصوت بما يدل عليه من معنى، فقد اتسعت عبقريته لتشمل مباحث صوتية أخرى، لها ارتباط وثيق بالفونولوجيا، فدرس الصوت باعتبار خصائصه الوظيفية، متجاوزا قيمته الذاتية (طبيعته الفيزيائية والفيزيولوجية). وأتاحت له هذه النقلة في مجال الدراسة، لأن يتنبّه إلى صلة الصوت بمدلوله، أو ما يعرف باقتران ذاتية الصوت

بدلالته المعنوية، وفي هذا الباب، "جمع ألفاظا وجد بين حروفها اشتراكا، في الصفات الفونولوجية، فأفضى ذلك إلى تقاربها في الدلالة"[17].

وفي باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، بحَث في الصلة بين اللفظ ودلالته، إذ يقول: "أما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، فباب عظيم واسع.. وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف، على سمت الأحداث المعبر عنها"[18]. ومثّل لذلك بالمشاكلة الموجودة بين الأصوات والأحداث المعبرة عنها، قوة وضعفا، فالصوت القوي للحدث القوي، أما الحدث الضعيف فيناسبه الصوت الضعيف، "حتّى إنهم يراعون مواضع الحروف من معانيها، فيجعلون الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى، والأسهل والأهمس، لما هو أدنى وأقل وأخفى عملا (حدثا) وصوتا، ويجعلون الحرف الأقوى والأجهر والأشدّ، لما هو أقوى عملا وأعظم حسّا"[19].

إنّ تعامل ابن جني مع وحدات اللفظ، بجعلها أصواتا لغوية لها علاقة بالدلالة، وقادرة على تغييرها، يجعل من الصوت اللغوي وحدة تركيبية دالّة، وليس مجرد أجزاءَ (ذوات)، تمتاز بمخارج وصفات، ولئن عجَّت الكتب اللغوية الحديثة بتعريفات الفونيم، فإنا نعتقد في غير جزم، أن ما أورده عمر مختار عمر عن رأي ترنكا : "الفونيم كل صوت قادر على إيجاد تغيير دلالي"[20]؛ يتوافق نسبيا مع ما قدّمه ابن جني عن القيمة الدلالية التي يحملها الصوت اللغوي. وربما وجد قارئنا في هذه المقاطع المستلّة، من كتاب الخصائص ثبتٌ للوصف الذي أسلفنا، عن علاقة الصوت بمعناه المعبّر عنه .

يقول ابن جني: " ألا ترى أن الخضم لكل رطب، والقضم لكل يابس، وبين الرطب واليابس ما بين الخاء والقاف من الرخاوة والصلابة"[21]. فالقاف الشديدة صوت يلازم أكل الصلب، (قضمت الدابة شعيرها)، بينما الخاء لينة مهموسة تناسب أكل الرطب والرخو، وفي الأثر (قد يدرك الخضم بالقضم)، أي الرخاء بالشدّة واللين بالشظف.

من أمثلة ذلك أيضا، يقول ابن جني في الفعلين (توصّل و توسّل)، "فالوصيلة أقوى معنى من الوسيلة، لذا جعلوا لها الصاد لأنها أقوى صوتا من السين، لما فيها من الاستعلاء، والتوسّل دليل على الضعف، فجعلت الصاد لقوّتها للمعنى الأقوى، والسين لضعفها للمعنى الأضعف، وكذلك نضخ ونضح، فالنضح للماء الضعيف لما فيه من رقّة الحاء، والنضخ* لما هو أقوى من الماء لغلظ الخاء"[22].

ولابن فارس أمثلة تطبيقية كثيرة، يمكن للقارئ أن يطّلع عليها، إذا ما رام أن يستبين أثر الصوائت في تحديد الدلالة وتوجيهها، يقول ابن فارس: "وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها،

فهم يميّزون بالحركات وغيرها بين المعاني، يقولون: مِفتح، للآلة التي يفتح بها، ومَفتَح لموضع الفتح، ومِقص لآلة القص، ومَقص للموضع الذي يكون فيه القص"[23].

أدرك أيضا الأثر الذي يؤديه تنغيم العبارة ، ومن أمثلته قوله: "وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: "سير عليهم ليل، وهم يريدون: ليل طويل، وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة، لما دلّ من الحال على موضعها، وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك.."[24].

2 – الصوت والصرف:

تعتبر العربية من أكثر اللغات اعتمادا على الحس الصوتي، ذلك أن العرب أمة سماع ورواية للاخبار، ومتى اقتصر أمر اللغة على السماع والإنشاد فلا بد أن تعنى بالانسجام الصوتي، ويحدث الانسجام داخل الكلمة الواحدة أثناء تجاور مقاطعها وتقارب وحداتها، كما يحدث الانسجام داخل التراكيب أثناء تجاور الكلمات وتتابعها، يقول الجاحظ في جودة الشعر: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا فيجري على اللسان كما يجري الدهان"[25]، فالحروف والحركات هي العناصر الصوتية للكلمة، ومنها القوي والضعيف والطويل والقصير والمجهور والمهموس والسابق واللاحق والحركة والحرف، تجتمع بفعل التأثر والتأثير لتشكل الصورة الخارجية للكلمة أو ما يعرف بالشكل المورفولوجي(الصرفي) للكلمة، لذلك لا يمكن في نظام اللغة العربية إغفال العلاقة بين الصوت والصرف، إذ نجد أن كثيرا من التغيرات الصرفية التي تطرأ على اللغة العربية إنما تبنى على قوانين صوتية، فالبنية الصرفية هي الهيئة التي توجد عليها المادة اللغوية، وتتحدد من خلال عدد معين من الحروف في ترتيبها وحركتها وأصالتها وزيادتها وإثباتها أو حذف بعضها، ووفق هذه الدينامية الموجودة بين الوحدات الصوتية تتمايز الأبنية العربية بقوالب تصريفية مختلفة وتتغير معانيها وفق ميزانها الصرفي الذي تكون عليه يقال:(القاسط للجائر والمقسط للعادل، فتحول المعنى من الجور إلى العدل بنفس المادة الصوتية مع تعديل خفيف في الهيئة الصرفية). ولابد من دراسة النظام الصوتي للغة العربية لمن يريد دراسة نظامها الصرفي، لأن الكلمة تعول على الوحدات الصوتية (صوائت وصوامت) في صناعة ميزانها الصرفي، وليس يخفى على دارس العربية أن كثيرا من النوازل الصرفية (إعلال، قلب، ابدل، زيادة) إنما يتم بآليتي المخالفة والمماثلة حفاظا على حالات الانسجام الصوتي ومراعاة للجهد أثناء النطق، فيقدم الدارسون تبريرات صوتية لتفسير التعديلات الصرفية داخل الكلمة العربية، وهي مسبقا تركيبات وصيغ صرفية استساغها

السماع العربي وإرتاحت لها السليقة والفطرة، لأن نطقها لا يكلف جهاز النطق صعوبة وإجهادا.

فاللغة العربية في نظامها الصرفي تتحرك وفق دينامية صوتية تجتمع فيها الصوامت والصوائت والمقاطع لتشكل بنية صرفية محكومة بقوانين صوتية، فكانت ظواهر الإتباع الحركي والمماثلة الحركية والتخفيف والتسكين والحذف والزيادة، هي ميكانيزمات تزيد في مرونة الكلمة العربية وتوسع من دائرة دلالاتها.

3 – الصوت والنحو:

لما كان المستوى الصوتي موجها فاعلا لبقية مستويات اللغة، فإن ارتباطه بالمستوى النحوي هو بيّن جليّ، فكثير من النحويين عرضوا لمسائل النحو واعتلوا لها بعلل صوتية، واتبعو في ذلك قانون التخفيف والاقتصاد في الجهد، فذكروا مثلا: انشغال المحل بحركة مناسبة، وفتح لام المستغاث التي هي لام مكسورة في الأصل(يا لَك و يالَه)، كما ذكروا التخالف الحركي بين الصوائت لتجنب توالي الأمثال، وكذا نصب جمع المؤنث السالم بالكسرة نيابة عن الفتحة وهو من المخالفة الصوتية، وكسر نون المثنى، وغيرها من التخريجات النحوية التي استقر عليها نظام المفردة العربية، فيسهل الإقناع بحركتها الإعرابية وما يطرأ عليها من تعديل باعتماد تلك الدينامية الصوتية التي يتحرك في فلكها نظام اللغة العربية، حتى أن الدراسة النحوية تبدو أحيانا قاصرة إذا لم تستند على الدراسة الصوتية، فأحدهما يستأنس بقوانين الآخر لتحقيق تشكيلاته ومركباته، وتصير المسوغات الصوتية تفسيرا وتبريرا للتشكيلات والتعديلات النحوية.

غايات الدينامية الصوتية وتشكيلاتها في نظام اللغة العربية:

يوصف الكلام الإنساني بالسلسلة، وتوصف الأصوات بحلقات هذه السلسلة، ومتى كانت هذه الحلقات متناسقة منسجمة، فإن ذلك يضفي عليها حسنا واعتدالا، ومتى كانت الحلقات ممجوجة مضطرة، انغمر شكل السلسلة وضمر، وإنما التناسق والانسجام يقعان فيما يكون بين الأصوات من حسن التجاور والائتلاف بين مخارج الحروف وصفاتها، ذلك أن أعضاء النطق لا تشتغل بنطق الحرف بمعزل عن غيره من الحروف، إنما تتحرك لتنطق جملة ومجموعة من الحروف، يجب أن تكون معتدلة منسجمة متحدة، حتى تبدو حركة جهاز النطق هي الأخرى منسجمة مرتاحة مألوفة، لأن نطق الصوت الواحد يتأثر بما يسبقه أو يلحقه من أصوات. "ولهذا تحرص اللغات عامة على أن يكون هناك انسجام تام بين

الأصوات داخل الكلمات، حتى تؤمّن قدرا أعلى من السهولة في النطق، وحدّا أعلى من الوضوح في السمع"[26].

وتبعا لتلك الفصول التي عقدها القدماء في أصول الفصاحة وشروطها، حرصت العربية أن يكون نسيج كلِمِها من أصوات متباعدة في المخارج، بل ووصف عمل أعضاء النطق في المخارج المتقاربة بأنه "كمشي المقيد"[27]، ومن ثمة كان الطبع في العربية أن لم تجمع بين الأصوات الحلقية أو الشجرية أو النطعية أو الأسلية في نسق متتالي وحيز ضيق، "واعلم أنه لا يكاد يجيء في الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة لصعوبة ذلك عليهم"[28]. إلا أن البنية العربية وصيغها الصرفية المتنوعة لا تستقيم مع قانون تباعد المخارج في كل أحوالها، فيحدث أحيانا أن يجتمع في بعض صيغها حروف تتقارب أو تتماثل مخارجها، فمثلا: افتعل من ضرب (اضترب)، وفي المضارع المتكلم من صيغة (أَفعَل) يتوالى مقطعان متماثلان فنقول (أُأَفعل)، وإذا جاز لنا أن نجمع بين المتماثلين في مضارع (أسس) إذ نقول (أُأسس)، فإنه مع مضارع (أَصلَح) لا يجوز أن نجمع بينهما فلا نقول مثلا (أُأَصلح)، حتى لا يقع في الصيغة اللبس والثقل مثلما سبق تفصيله.

كان لابد من هذه المقدمة لنشير إلى تلك الدينامية والانسيابية الصوتية التي أوجدها الكلام العربي، للتعامل مع الظواهر أو الطوارئ التي تخالف بناءه وطبعه، وحين يقع الصراع والتباين بين الأصوات المتماثلة أو المتقاربة، "فعناصر الكلمة الصوتية ليست متساوية القيمة في داخلها، فمنها القوي ومنها الضعيف"[29]، ويلجأ جهاز النطق إلى الاحتكام إلى قوانين المماثلة والمخالفة، "لأن طبيعة الصوت وما يجاوره في السياق تؤثران على بقاء الصوت أو عدمه"[30]، فيحصل بفعل هذا الاحتكام ذلك التناغم والتلاحم الذي تمتاز به اللغة العربية، ويُجبر أحد الصوتين المتجاورين على التسليم إلى الصوت الآخر، بل ويتقمص أحيانا بعضا من صفاته، أو يعدّل من مخرجه ليتناغم مع جنيسه، وهي نفسها القوانين التي تتحكم في التفاعلات الكيميائية بما يعرف بقانون التجاذب والتنافر بين الشحنتين إذا اختلفتا إيجابا وسلبا، أو بين المجالين المغناطيسيين، يقول تمام حسان" من الواضح أن النظام اللغوي والاستعمال السياقي يحرصان في اللغة العربية الفصحى على التقاء المتخالفين، أو بعبارة أخرى يحرصان على التخالف ويكرهان التنافر والتماثل"[31].

ومن ثمة فإن هذا التفاعل بين الأصوات المتجاورة في الكلمة الواحدة أو المتجاورة في السياق هو المسؤول المباشر عن تلك التغييرات الصوتية التي تطرأ للأصوات والصيغ، كما أن موضوع بحثنا في الدينامية الصوتية ما هو في الواقع إلا الأثر والناتج المادي عن ذلك التفاعل بين المتجاورين، ويرى أحمد مختار عمر أن الصوت اللغوي دائم الحركة والتلون وهو في حركته وتغيراته إنما يستجيب لبعض القوانين الصوتية فإذا أعوزت هذه القوانين، كان للقياس دوره في ضبط مختلف التلوينات التي قد تستجد على الضرب.

وما يمكن ملاحظته أن جزءًا كبيرا من التلوينات الصوتية في اللغة العربية هو معزو لقانون الاقتصاد في الجهد، فالعربية مثلا لا تسمح بإبقاء الساكنين، ولا تبتدئ بساكن، وتميل كبقية اللغات إلى تفضيل الكلمة القصيرة على مرادفتها الطويلة[32]، كما تتردد فيها الحركة القصيرة أكثر من الطويلة، إلى غير ذلك من القوانين التي تتحكم في عملية التركيب، مع مراعاة طبيعة الصوت ثم تعديله بالنظر إلى ما يجاوره من الأصوات.

خلاصة البحث:

نخلص من هذه الدراسة إلى توجيه انتباه القارئ إلى ما تحمله هذه الحركية والدينامية الصوتية من أثر الانسجام والتلاؤم الذي تتميز به لغة الضاد ولغة القرآن الكريم، ممثلة في تلك التجاذبات التي تقع بين الصوت والمستويات اللغوية الأخرى (الصرف والدلالة والنحو)

– إن هذا التآلف بين أصوات الألفاظ حين يمازج بعضها بعضاً هو الذي يؤدي إلى التلاؤم والتناغم الإيقاعي، فنسق الجملة العربية يخلو من كل تنافر أو نشاز، لأنها قد وفرت لنفسها تلاؤما وانسجاما كبيرين، فوفّرا لها إيقاعا مؤثرا على المتلقي العربي

– بل يجد المستعمل في هذه التقليبات والتنويعات الصوتية متعة وجودة، تحفظ به جهده أثناء النطق، وتحدث في كلامه انسجاما ويسهل عليه رياضتها.

– إن الأصوات منفردة هي المادة الخام لأي لغة، وبعد انضمامها بعضها إلى بعض تشكل مفردات تلك اللغة، وبتآلفها وفق تراكيب وقوانين اللغة يتشكل الكلام تبعا لدينامية متقنة، وتبقى القدرة على تناسق الكلام وتآلفه هي من تناسق وتآلف أصواته المشكلة له، وتنافر الكلمات وتباعدها أيضا قد يرجع إلى خلل أو عسر في تركيب تلك الأصوات التي تشكله أو تداخل مقاطعها وفونيماتها.

الهوامش:

1- ابن منظور، لسان العرب، (مادة ص و ت).

2-ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، 1979، ج.1، ص.318.

3- ابن جني، سر صناعة الأعراب، تح حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط2/ 1993، ج.1، ص.6.

4- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو مصرية، ط4/1981، ص.6.

5- ينظر: مكي درار، هندسة المستويات اللسانية من المصادر العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن ط1/2012، ص.38.

6-ابن خلدون، المقدمة، ص.499.

7- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط9/2009، ص186.

8 - شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، مصر، ط.7، ص. 113.

9- ينظر: كمال أبو ديب، في البنية الإيقاعية للشعر العربي، دار الملايين، بيروت، ط1/ 1974، ص.151.

10-ينظر: أدونيس، شعرية اللغة العربية، دار الفكر، بيروت، ط5/1986، ص.122.

11- ينظر: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط7/ 1997.ص.164.

* ابن سنان الخفاجي، ابن الأثير، الخطيب القزويني.

1 - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، شرح وتصحيح، عبد المتعالي الصعيدي، مط محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.1969، ص.49-50.

13- محمد رشاد الحمزاوي، العربية والحداثة، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص.21.

14- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح.محمد محي الدين عبد الحميد، مط مصطفى البابي الحلبي،القاهرة، ط1/1959، ص. 91.

15- الخطابي حمد بن محمد، إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تح. محمد زغلول سلام، ومحمد خلف الله، دار المعارف ، القاهرة، ط1/1968.ص.96.

16- ابن الأثير، المثل السائر، ص.106.

17- منقور عبد الجليل، علم الدلالة (أصوله ومباحثه في التراث العربي)، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2001، ص.129.

18- ابن جني، الخصائص، ج2/ ص.157.

19- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط6 2001، ج1/ص.107.

20-أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص.199.

21-ابن جني، الخصائص، ج1/ ص.155.

*يقول تعالى: "فيهما عينان نضّاختان"، الآية 66، من سورة الرحمن.

22- ابن جني، الخصائص ج1/ ص.161.

23- ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، تح. مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1963، ص.190.

24 -ابن جني، الخصائص، ج 2/ص.370-371.

25، الجاحظ، البيان والتبين

26- فوزي حسن الشايب، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة، ص.15.

27- ابن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب بيروت، د.ت.ج10/ ص.131.

28- ابن دريد، جمهرة اللغة، ج1/ ص.9.

29- فندريس، اللغة، ص.90.

30- عبد الصبور شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية (رؤية جديدة في الصرف العربي)، ص.198.

31- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص. 263.

32- ينظر: أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص.394.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

1. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو مصرية، ط4/1981.
2. إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط7/ 1997.
3. ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح.محمد محي الدين عبد الحميد، مط مصطفى البابي الحلبي،القاهرة، ط1/1959.
4. ابن جني، الخصائص، تح. محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت لبنان، ط2/ 1952.
5. ابن جني، سر صناعة الأعراب، تح حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط2/ 1993.
6. ابن خلدون، المقدمة.

7. ابن دريد، جمهرة اللغة، تح. رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1/ 1987، ج1.
8. ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تح: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف بيروت، ط1/1993، ج1.
9. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر.
10. ابن منظور، لسان العرب، (مادة ص و ت)، دار صادر، بيروت،ط/3.
11. ابن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب بيروت، د.ت.ج10.
12. أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، ط3/1986.
13. أدونيس، شعرية اللغة العربية، دار الفكر، بيروت، ط5/1986.
14. الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة.2003، ج1.
15. الخطابي حمد بن محمد، إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تح محمد زغلول سلام، ومحمد خلف الله، دار المعارف، القاهرة.
16. تمام حسان، العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1973.
17. سنان الخفاجي، سر الفصاحة، شرح وتصحيح، عبد المتعالي الصعيدي، مط محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.1969.
18. شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، مصر، ط.7.
19. عبد الصبور شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية (رؤية جديدة في الصرف العربي)، مؤسسة الرسالة بيروت 1980
20. فوزي حسن الشايب، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، عالم الكتب الحديث الأردن، ط1/2004
21. كمال أبو ديب، في البنية الإيقاعية للشعر العربي، دار الملايين، بيروت، ط1/ 1974.
22. مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط6، 2001.
23. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق.

24. محمد رشاد الحمزاوي، العربية والحداثة، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
25. مكي درار، هندسة المستويات اللسانية من المصادر العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن ط1/2012.
26. منقور عبد الجليل، علم الدلالة (أصوله ومباحثه في التراث العربي)، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2001.